

منهج ابي حامد الغزالي في التعلم والتعليم

أ.د. وضحة عليوي صالح أ.د. عباس علي حميد

م.م. نورس مالك سطوان

كلية العلوم الاسلامية جامعة ديالى

dr.abbasali@uodiyala.edu.iq dr.wadhaolaiwey@uodiyala.edu.iq

nawrassatwan@uodiyala.edu.iq

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين

اما بعد:

تُعَدُّ الدراسات المنهجية ذات أهمية كبرى في النهضة الفكرية، حيث إنَّ تراكم المعلومات في عالمنا المعاصر يحتاج إلى ترتيب وتنقيح ليستفاد منه في نهضة الأمة، وإذا رجعنا إلى التراث الإسلامي نجد أنَّ العلماء قد عكفوا على دراسة المتون والشروح باستفاضة وأرسوا قواعد منهجية لا تزال في حاجة لدراستها والاستفادة منها وتطويرها.

فأبو حامد الغزالي^(١) من العلماء الأفاضل الذين كتبوا في الفكر الإسلامي والفلسفة بمنهجية حار فيها معاصروه، واستوقفت الذين جاءوا من بعده، ولا تزال تُعَدُّ من المرتكزات الأصيلة لعلماء الغرب والشرق، خاصة في قضايا العقل والشك المنهجي والإلهام. وفي هذا البحث نتناول منهجه في التعلم والتعليم.

يعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي في تجميع المعارف التي توضح منهج الغزالي في التعلم والتعليم مستقاة من مصادره الأساسية.

(١) أبو حامد الغزالي هو: محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، وُلِدَ بطوس بخرسان سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ، درس علم الفقه، وأصول الديانات، والمنطق، وقرأ الحكمة، والفلسفة، وأحكم كل ذلك، له تصانيف كثيرة منها: "إحياء علوم الدين"، "معيان التعلم"، "المستصفى"، "تحافت الفلاسفة"، و"المنقذ من الضلال". ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، بيروت، لبنان، د.ت، ص ٢١٦. وينظر: أبو الفلاح عبد المحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥٠هـ، ص ١٠-١٢.

المبحث الاول

وفيه مطالب

المطلب الاول

التعلم

بما أنّ أبا حامد يبحث عن التعلم بحقائق الأمور تناول موضوع التعلم بالتفصيل فعرفه بقوله: "فالتعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم إنكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، وينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً ولا إنكاراً"^(١).

هكذا عرف أبو حامد الغزالي التعلم، فهو . عنده . "الاعتقاد الجازم المطابق للمعلوم، ويكون على بصيرة ويتصف بالثبات عند التشكيك"^(٢).

فهذا التعريف يميز التعلم عن الظن، والشك، والوهم، والتقليد.

وهنالک من اعترض على هذا التعميم تعريف الغزالي، وقال: "إن علم الله ليس على بصيرة وكشف وانسراح"^(٣) كعلم الإنسان.

ويمكن القول هنا بأن الغزالي يقصد علم الإنسان وليس علم الله تعالى، لأنّ في تناوله للعلم تحدث عن حاكم الحس وحاكم العقل وإمكانية الثقة بهما، وهذا مما يشير بوضوح إلى أنه يتحدث عن علم البشر، وما يزيد ذلك تأكيداً قوله: "اعلم أنّ التعلم تصوّر النفس الناطقة مطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها، وكيفياتها، وكمياتها، وجواهرها، وذواتها، إن كانت مفردة، والعالم هو المحيط المدرك المتصوّر، والمعلوم هو ذات الشيء الذي ينتقش علمه في النفس"^(٤).

فقوله: "تصوّر النفس الناطقة"، يدل على أنه يقصد النفس الإنسانية. فإذا ما قارناً بين هذا التعريف والتعريف الأول لا نجد أي اختلاف بينهما، إنما يُعدّ الثاني رسماً لهيئة التعريف الأول، فالأول يتحدث عن حقيقة التعلم، والثاني عن كيفية التعلم.

(١) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا محمد محمد صابر، مصر، حقيقة سيدنا الحسين د. ت، ص ١٤-١٥.

(٢) ينظر: أبو حامد المستصفي، دار الفكر للطباعة والنشر، د. ت، ص ٢٤-٢٦.

(٣) زروق، عبد الله حسن: نظرية التعليم عند الغزالي، بيروت، لبنان، "المسلم المعاصر"، العدد ٤٨، ١٩٨٧م، ص ٢٩.

(٤) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، شركة الطباعة الفنية، د. ت، ص ٩٨.

المطلب الثاني

شرف التعلم وأهميته

وشرف التعلم وأهميته غير خافية على أحد، بيّن ذلك أبو حامد الغزالي بقوله: "فاعلم أنّ التعلم شريف بذاته من غير النظر إلى جهة المعلوم، حتى إنّ علم السحر شريف بذاته وإن كان باطلاً، وذلك أنّ التعلم ضد الجهل، والجهل من لوازم الظلمة، والظلمة من حيز السكون، والسكون قريب من العدم، فالجهل حكمه حكم العدم، والتعلم حكمه حكم الوجود"^(١).

وخلاصة هذا القول؛ أنّ التعلم هو الوجود وهو الحياة، وأنه شريف في ذاته، لأنّ به قوام الوجود، وديمومة الحياة التي تتصل بخيوطه مع الآخرة. وهنا تكمن ضرورته وأهميته.

(١) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ٩٩.

المبحث الثاني

أصناف التعلم وأقسامه

يصنّف أبو حامد الغزالي التعلم ويقسمه إلى قسمين:

فيقول: "اعلم أنّ التعلم على قسمين: أحدهما شرعي، والآخر عقلي. وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها، وأكثر العلوم

العقلية شرعية عند عارفها ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(١).

بهذا العمق الفلسفي يشرح أقسام التعلم، حيث قسّمه إلى شرعي وعقلي، وكلاهما مرتبط بالآخر، فأكثر العلوم الشرعية عقلية، لأنها توافق صريح العقل ولم يخاطب إلا العقلاء، وكذلك العلوم العقلية فإن أكثرها شرعية، لأنها مما ينفع الإنسان في دنياه، والشرع يحث على إعمار الدنيا وإثابة من يقوم بواجب العمل فيها قاصداً وجه الله تعالى، ولهذا القصد قال: "عند عارفها".

وبعد تقسيمه التعلم إلى شرعي وعقلي؛ أخذ في تفصيل أقسامهما، فبدأ بالشرعي وقسّمه إلى قسمين:

الأول: في الأصول، وهو علم التوحيد.

والآخر: علم الفروع.

والتعلم الشرعي إما أن يكون علمياً أو عملياً. علم الأصول هو التعليمي، علم الفروع هو العملي.

والتعلم العملي يشتمل على ثلاثة حقوق:

الأول: حق الله تعالى "أركان العبادات".

والثاني: حق العباد "أبواب العادات" مثل: البيع، والشركة، والقصاص.

والثالث: حق النفس "علم الأخلاق"^(٢).

فأما قوله: "علم الأصول هو التعليمي، وعلم الفروع هو العملي"، فلأنّ علم الأصول ثابت لا يتغيّر، ومعرفته لم تأت بالاكْتساب ولكن بخبر السماء "الوحي"، فصدّقه الناس واعتقدوا فيه، فلا سبيل فيه إلى اجتهاد أو تغيير، لذلك تظل عقيدة الإسلام ثابتة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل.

وأما التعلم العملي "علم الفروع" فهو فرعيات تتعلق بحقوق العباد، والاجتهاد فيها وارد فيما يتحمّله النص.

(١) سورة النور، الآية (٤٠). وينظر: أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١٠٦.

(٢) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١٠٧-١١٠.

وسمي علم الفروع عملياً لأنه هو فقه الحياة الذي يتعلق بحركتها المتجددة، وظروفها المتغيرة، التي تتطلب العمل الدؤوب، فإن علم الفروع يتجدد مع الحياة محتفظاً بأصوله، ومسائراً لحركتها باستيعاب تام، دون أن يؤدي ذلك إلى تحليل حرام أو تحريم حلال.

فحتى أركان العبادات التي هي حق الله تعالى وتصنّف من ضمن علم الفروع فهي عملية، لأن الإنسان يزاؤها بجوارحه، وهي التي تكسب الحياة طمأنينة و يقيناً.

فبعد أن فرغ أبو حامد الغزالي من أقسام التعلم الشرعي تناول بالتقسيم مراتب التعلم العقلي، حيث قسمه إلى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: التعلم الرياضي.

المرتبة الثانية: التعلم الطبيعي.

المرتبة الثالثة: النظر في الوجود وتقسيمه إلى الواجب والممكن^(١).

هذا الترتيب المنسوق للعلم الشرعي والعقلي ينبئ عن عقلية فذة، وبعد فكري عميق، وإحاطة واسعة بالعلوم والمعارف الفنية، أسهمت في بروز منهجية أصبحت مورداً خصباً لمناهج البحث الحديث.

وبعد حديثه عن التعلم غاص في رحلة البحث عن اليقين، وقد ظن أنه لا مطعم في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسّيات "فأقبلت أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟! فانتهي بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة نعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدرّج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف؟! وننظر إلى الكوكب فنراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدلُّ على أنه أكبر من الأرض في المقدار؟! هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته"^(٢).

فلما بطلت ثقة الغزالي بالمحسوسات لجأ إلى طلب اليقين في العقليات فقال: "فلعله لا ثقة إلا بالعقليات، التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً"^(٣).

وكذلك شكَّ الغزالي في حاكم العقل، فلم يتيسر له علاج حتى شفاه الله تعالى من ذلك المرض.

(١) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١١٠-١١٥.

(٢) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٥.

(٣) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٥-١٦.

ولكن كيف تمّ الشفاء من ذلك المرض؟! أبالبحث والنظر أم بالتجربة والاختبار؟ فيجبنا عن ذلك بقوله: "ولم يكن ذلك الخلاص من الشك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظنَّ أنَّ الكشف موقوف على الأدلة المحررة؛ لقد ضَيَّقَ رحمة الله الواسعة"^(١).

يتضح مما تقدم أنَّ أبا حامد لم يصل إلى اليقين في العلوم بطريقة تقليدية، بل تتبع طرق البحث المختلفة ووسائلها المتعددة من حواس وعقل، فعلم أنها لا تقود إلى الحقيقة الكاملة، بل أحياناً تعطيك عكس الحقيقة. مثال الظل. وتارة تعطيك الحقيقة ناقصة. مثال الكوكب. هذا فيما يتعلق بالحواس.

ثم واصل رحلة الشك في حاكم العقل أيضاً، حتى شفاه الله تعالى بنور قذفه في قلبه، فكانت النتيجة التي خرج بها "أنَّ الكشف ليس موقوف على "الأدلة المحررة".

إنَّ تأمُّل الغزالي في المحسوسات والعقليات هو الأساس الذي يستخلص منه الباحث نظرية الغزالي ومنهجيته في البحث، حيث سلك كافة الطرق التي ظنَّ أنها تصل به إلى اليقين، ليخرج في نهاية المطاف بمنهجية متكاملة في البحث تأثر بها فلاسفة العصر الحديث، ومنهم من قلَّده فيها تقليداً كاملاً.

يقول ديكارت^(٢): "إذاً ليس الشك مقصوداً هنا لنفسه، بل لامتحان معارفنا وقوانا العارفة، إذاً فأنا أشك في الحواس لأنها خدعتني أحياناً ولعلها تخدعني دائماً، وأنا أشك في استدلال العقل، لأنَّ الناس يخطئون في استدلالهم فمنهم من يخطئ في أبسط موضوعات الهندسة".

فالشك عند ديكارت ليس مطلوب لذاته ولكنه مطلوباً لليقين، فشكَّ في الحواس وشكَّ في العقل، أليس هذا هو ذات الشك عند الغزالي؟! وديكارت جاء بعده بقرون ألم يكن ما كتبه ديكارت تقليد للغزالي؟

"ما كتبه ديكارت "مقال عن المنهج" و"التأمُّلات"، حيث التشابه الشديد بينهما وبين ما قدَّم الغزالي في "المنقذ من الضلال" يؤكِّد دون أدنى شك تأثر الفيلسوف الفرنسي بفيلسوفنا وأخذه عنه"^(٣).

لقد تأثر علماء الغرب بمنهجية الغزالي خاصة في كتابه: "المنقذ من الضلال"، فهذا من شأنه أن يدفعنا للنظر في تراثه، لنستخلص منه المفاهيم المنهجية ونطورها، لا سيما وأنه يدعو للنظر الفاحص والنقد البنَّاء.

(١) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٦-١٧.

(٢) ديكارت رنيه "١٥٩٦-١٦٥٠م"، وُلِدَ في لاهاي بفرنسا، تلقى تعليمه في كلية "لافليش" اليسوعية، له عدد من المؤلفات في الفلسفة، ومن أشهر مؤلفاته: "مقال في المنهج". ينظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١٣٨. ديكارت رنيه "١٥٩٦-١٦٥٠م"، وُلِدَ في لاهاي بفرنسا، تلقى تعليمه في كلية "لافليش" اليسوعية، له عدد من المؤلفات في الفلسفة، ومن أشهر مؤلفاته: "مقال في المنهج". ينظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١٣٨.

(٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، مصر، دار المعارف، ط/٤، ١٩٦٦م، ص ٦٦. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، مصر، دار المعارف، ط/٤، ١٩٦٦م، ص ٦٦.

وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك التعلم حتى يساوى أعلمهم في أصل ذلك التعلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب التعلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا^(١).

وهنا يضع أبو حامد الغزالي أصولاً للنقد ومنهجية للبحث، وهذا النص يعالج إشكاليات النقد المعاصر، الذي يكون النقد هو الهدف وليس البحث عن الحقيقة، لذلك لا يهم الناقد الوقوف على المصدر الأساس والحرص على دراسته وفحصه، بل يكفي عنده السماع من وساطة أو الوقوف على النص مبتوراً أو التسرع في قراءته، ليخرج بعد ذلك على المألأ برؤية كاذبة تسهم في تصدع الفكر، وبمجان التعلم والتعلماء.

ما ذكر يمثل نماذج لرأي الغزالي في التعلم وأقسامه، "إذ إن مفهوم الغزالي للعلم هو أوسع مجالاً وأقرب إلى المفهوم المعاصر من التصور اليوناني الذي كان سائداً.

فتصور أفلاطون للعلم ظلّ معلقاً في السماء وفي عالم المثال، يخلق في الماهيات المعقولة للأشياء المطلقة لنماذج عليا للعالم المحسوس. وأما أرسطو فظل التعلم عنده قاصراً على عالم الكليات.

فإننا نجد نبرة جديدة في محاولات الفلاسفة المسلمين في تعريف التعلم تعريفاً أوسع مجالاً ومدى من المحاولات اليونانية التي وجدوها مطروحة على الساحة الفكرية.

فكانت هنالك محاولات الإشارة إلى التعلم الإلهي قسماً منفصلاً للعلم، يعلو على التعلم الوضعي الذي هو من اجتهاد البشر ومن تجاربهم^(٢).

فمنهجية الغزالي في التعلم كانت أوسع مجالاً وأكثر أصالة. ولكن هل هنالك فرق بين التعلم والتعليم عنده؟!

للإجابة عن هذا السؤال نتبع بعض ما قاله عن التعليم.

(١) مصطفى النشار: فلاسفة أيقظوا العالم، الثقافة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٦١.

(٢) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٢٥.

المبحث الثالث

التعليم

يرى أبو حامد أنّ الإخلاص والصدق في العمل، والعمل بالتعلم موصل إلى التعليم، "أما الذي هو حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات والتوكّل بالتجريد وحقيقة علم معاني التوحيد وسبر معاني التقرير وهو درجات ومقامات ومنح يخص الله تعالى بما من يشاء من عباده، وهي مراتب أكرم الله بها أهل صفوته وولايته، وهي مراتب:

. الصدق في التعلم.

. بركات الإخلاص في العمل.

فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه في طلبه والعمل به شيئاً من هذه المعاني فليس في شيء من الحقيقة، وإن كان حقاً، تجد أنّ حاله معلولة، أما مفتون بدنيته أو محجوب بجواه^(١).

فمن الطرق الموصلة للمعرفة عند الغزالي "علم وإخلاص وعمل بذلك التعلم". تقوم في أساسها على التوحيد.

فإنّ الشخص العالم من غير نية قاصدة وجهة الله تعالى، ومن دون إخلاص ولا عمل؛ فإنه ليس بعارف.

فالتوحيد هو المرتكز الأساس لنظرية التعليم عنده: "إنّ التعليم عند الغزالي عندما ترقى وتتقدم في الذات بمقدار ما يكسب ذلك التوحيد وتلك المحبة من فضائل، وإنّ المحبة ترتبط عنده بالتعليم والتوحيد برباط سيكولوجي، قد يبدو لأول وهلة صعب المنال"^(٢).

ويرى أنّ التوحيد الخالص لا بُدّ من أن يتبعه العمل، "فأما التوحيد فهو الأصل، وهو من علم المكاشفة، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بوساطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلّا بها"^(٣).

إذاً أصل التعليم هو التوحيد الذي يتعلق بالأعمال، وبه تحصل المكاشفة التي تعود إلى التعليم.

(١) إمام، زكريا بشير: مفهوم التعلم، سلسلة دراسات في القرآن، ١٩٩٥م، ص ١٥.

(٢) أبو حامد الغزالي: الإحياء، دار القلم، بيروت، د.ت، ٤٣/٥.

(٣) ينظر: عثمان عيسى شاهين: نظرية التعليم عند الغزالي "أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده"، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦١م، ص ٣٦١.

فإذا كان التوحيد هو أصل التعليم؛ فإنَّ التعليم في رأيه لا تحصل وتكتمل إلاَّ بقطع علاقة القلب بزخرف الدنيا والإقبال على الله تعالى "إنَّ الإقبال على الله طلباً للأنس بدوام ذكره يقربنا من وجوده ويصلنا بمحبته، إنَّ التوبة الخالية من الشوائب والتي لها مكانتها في الحصول على التعليم والمحبة تدنينا من خالق الكون ومبدع"^(١).

وللمحبة مكانة سامية في التعليم عند الغزالي، فبعد توحيد الله تعالى تأتي المحبة، مقاماً أصيلاً من مقامات التعليم "ما بعد إدراك المحبة مقام إلاَّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والإنس، والرضا، وأنه لا قبل المحبة مقام إلاَّ وهو مقدمة من مقدماتها، كالنوبة، والصبر، والزهد"^(٢).

فيمكن تلخيص شروط التعليم عنده في الآتي:

١- التوحيد الخالص.

٢- المحبة.

٣- الشوق، الإنس، الرضا.

٤- التعلم والعمل به.

٥- قطع علاقة القلب بزخرف الدنيا.

فإذا انقطعت علاقة القلب بزخرف الدنيا مع وجود الشروط سالفة الذكر؛ تحصل التعليم بالنور الإلهي "وفي القلب غريزة تسمى

"النور الإلهي" لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾^(٣)، وقد تسمى "العقل والبصيرة"^(٤).

وأما إنَّ تعلق القلب بزخرف الدنيا ولم يعمل الإنسان بعلمه؛ كان محبوباً عن المعارف، "فإنَّ النفس ما دامت محبوباً بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما غلب عليها من الصفات البشرية؛ فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار"^(٥). فكما تحجب الأعين عن الرؤية في حالة إطباق الأجفان عليها؛ فكذلك القلوب تحجب بالشهوات عن التعليم.

(١) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ١٥٨/٥.

(٢) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ٥٢/٥.

(٣) سورة الزمر، الآية (٢٢).

(٤) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ٦٣/٥.

(٥) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ٧٠/٥.

"وعلم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا يَكُونُ﴾ (١)

جعل التعلم ميراث التقوى، وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك، حيث لم يكشف النقاب إلا لأولي الألباب، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا" (٢).

إنَّ أبا حامد الغزالي يبيِّن نظريته في التعليم على قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا يَكُونُ﴾، فالتعلم متوقف على التقوى، والتقوى لا تكون إلا بتوحيد الله تعالى ومحبته ومجانبة الهوى، فالتقى هو الذي يرث التعلم والتعليم عن طريق التحصيل والكشف.

وحديث الغزالي عن التعليم عميق كعمق فكره، وجاءت نظريته في التعليم بعد بحث طويل وشك محيّر حتى شفاه الله منه. فكان تنظيره في التعليم أصيلاً خالياً من التقليد، فلننظر إلى أصالة هذا النص وعمقه "فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً في التعلم، فالراسخون في التعلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب في سر السر، فعرفهم ما عرفهم، وخاضوا في بحر التعلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب، فنطقوا بالحكم" (٣).

إنه لم يقيم نظريته على الحدس وحده، ولكنه بناها على تنظير فلسفي محكم. انظر إلى علاقة الروح بغيب الغيب وسر السر، فإنَّ المادة بحكم تركيبها لا يمكنها إدراك أكثر من المحسوس، إذ لا سبيل إلى غيب الغيب وسر السر إلا بالروح، ولكن أي روح تلك؟ إنَّها الروح المحبة لله التقية الزاهدة في الدنيا، وكيف تدرك ذلك البعد؟ تدركه بإذن الله بعد أن يُكشف لها ما أخفي عن الكثيرين،

لتكتمل بذلك معرفتها، فيكون ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا يَكُونُ﴾

ولعلَّ ما قاله عن إدراك الروح يوافق ما قرره ابن رشد (٤): "من أنَّ الإدراك والتعليم لا يوجدان إلا في الصورة المجردة تماماً عن المادة، ومعنى ذلك في نظره. أنهما لا يوجدان إلا بالنسبة إلى الذوات غير الجسمية" (٥).

وإنَّ ما ذكرناه عن الروح والكشف لا يعنى أنَّ الغزالي ينفي وجود الأشياء الحسية أو يقلل من شأنها، بل يثبتها ويقر بدورها ودور العقل، ولكنه لا يحصر التعليم في الحس والعقل، فقد أضاف إلى ذلك الكشف والإلهام الأمر الذي ميَّز التعليم عنده ورسم لها

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

(٢) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ٧٢/٥.

(٣) أبو حامد الغزالي: الإحياء، ٥٩/٥.

(٤) ابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، الفيلسوف الشهير بـ "الشارح" و "الحفيد"، وُلِدَ في قرطبة عاصمة الأندلس سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وتوفى في مراكش سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، درس على أبيه واستظهر عليه الموطأ، له مؤلفات كثيرة منها: "فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة"، و "تهافت الفلاسفة"، و "بداية المجتهد ونهاية المقتصد". ينظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلوة، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٥م، ٥٥/٢.

(٥) محمود قاسم: نظرية التعليم عند ابن رشد، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت، ص ١٣١.

سمات واضحة ميزتها عما قاله كثير من العلماء، وهذا ما يوضحه قوله: "فمن ظنَّ أنَّ الكشف موقوف على الأدلة المحررة؛ فقد ضيَّق رحمة الله الواسعة"^(١).

إنه اكتشف مجالات التعليم التي كانت مجهولة، مما اضطر بعض العلماء للتأثر به رغم اختلافهم معه في الاعتقاد. يقول رسل^(٢): "إنَّ موضوعات الحس من الأشياء التي نعرفها مباشرة، وهي تقدم في الحقيقة أوضح وأكمل مثال للمعرفة المباشرة، ولكن لو كانت موضوعات الحس هذه هي المثال الوحيد لأنحصرت معرفتنا في حدود ضيقة عما عليه بكثير"^(٣).

وهو بهذا يوافق الغزالي في قوله: "فمن ظنَّ أنَّ الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيَّق رحمة الله الواسعة"، ويبيِّن قول رسل "لو كانت موضوعات الحس هذه هي المثال الوحيد لأنحصرت معرفتنا في حدود ضيقة".

فتأثير فكر الغزالي في الدين جاءوا من بعده بيِّن يتضح عند الإطلاع على ما قاله فلاسفة الغرب أمثال: ديكارت، رسل، وغيرهم في المنهج والتعليم.

ويرى الباحث أنَّ أبا حامد الغزالي في نظريته المعرفية كان متأثراً بعوامل متباينة، فإنه تأثر بالفلسفة وذلك في تقسيمه للعلم، ثم تأثر بالصوفية في حديثه عن التوحيد والمحبة، إضافة إلى عوامل ميتافيزيقية عند تناوله للغيب وذوقيته في البديهة والفترة.

كل هذه العوامل امتزجت فيه، لذا جاءت التعليم عنده ناضجة ومتكاملة.

(١) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٧.

(٢) رسل، برتراند آرثر وليم أيرل رسل، فيلسوف إنجليزي، وُلِدَ سنة ١٨٧٢م، عمل محاضراً في الفلسفة، كان مهتماً بالسياسة، له "تحليل العقل" و"مدخل إلى الفلسفة والرياضة". ينظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١٥٦.

(٣) برتراند رسل: مشاكل الفلسفة، ط/١، ١٩٢٩م، ص ٤٤.

المبحث الرابع

وفيه مطالب

المطلب الأول

وسائل التعليم

وبما أنه لا يمكن الفصل التام بين التعلم والتعليم عند أبي حامد الغزالي؛ لأنَّ التعليم لا تكتمل إلاَّ بالتعلم، فالتعلم المبني على التوحيد الخالص لوجه الله تعالى والذي يتبعه العمل تكون نتيجته التعليم. لذلك عندما تحدث عن وسائل التعلم والتعليم ذكرها بقوله: "طرق تحصيل العلوم"^(١).

وقد اصطلح عليها بـ "وسائل التعليم"، يقول الغزالي: "اعلم أنَّ التعلم الإنساني يحصل من طريقين: أحدهما: التعلُّم الإنساني.

والثاني: التعلُّم الرباني.

والطريق الأول معهود يقر به جميع العقلاء. وأما التعلُّم الإنساني فيكون على وجهين:

الأول: التعلُّم من خارج "التحصيل بالتعلُّم".

والثاني: التعلُّم من داخل "الاشتغال بالتفكُّر.

والتفكُّر من الباطن بمنزلة التعلُّم في الظاهر، فإنَّ التعلُّم استفادة الشخص من الشخص الجزئي، والتفكُّر استفادة النفس من النفس الكلي، والنفس الكلي أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع التعلُّم والعقلاء، والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذرة في الأرض"^(٢).

فالتعلم الإنساني يحصل عنده من طريقين:

١- التعلُّم الإنساني.

٢- التعلُّم الرباني.

ثم يفصِّل ذلك، فيبدأ بالتعلُّم الإنساني ويقسِّمه إلى:

(١) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١١١.

(٢) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١١١.

أ- التعلُّم من خارج:

وهو التحصيل بالتعلُّم، كأخذ التعلُّم شفاهة أو كتابة عن معلم.

ب- التعلُّم من داخل:

وهو الاشتغال بالتفكير، وهذا التفكير مستفاد من النفس الكلي، وهو عنده أقوى تعليمياً وأشد تأثيراً.

وهذا محل اتفاق عند كثير من العلماء، حيث يدور محور التعلُّم على العقل ووسائل الحس الظاهرة، إضافة إلى الأحاسيس الداخلية الممتدة في النفس. فالحواس تنقل الظواهر إلى العقل الذي يقوم بتجربتها، ولكن لا تكتمل حقائق التعلُّم دون ذلك الامتداد الداخلي للأحاسيس^(١).

ولا غرابة إن فضل أبو حامد الاشتغال بالتفكير على غيره من أنواع التعلُّم الإنساني، فإنَّ القرآن الكريم كله دعوة للتفكير والتدبُّر

في آيات الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

"ولقد عانى الغزالي من محاولته لتصوير العلاقة بين الفكر والواقع، لأنَّ تلك العلاقة هي التي تميِّز التعلُّم من اللا علم، والتعلُّم وثيق الصلة بالواقع"^(٣).

وقد جاء تفضيل الغزالي للتعلُّم من النفس لأنَّ العلوم مركوزة فيها بالقوة. ولكن هل يتساوى الناس في سرعة التعلُّم؟ فهم متفاوتون في ذلك حسب صفاء النفس أو غلبة الهوى، "فإذا كملت نفس المتعلم تكون كالشجرة المثمرة أو كالجوهر الخارج من قعر البحر، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلُّم، وطول المدة، وتحمل المشقة والتعب، وطلب الفائدة. وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغني الطالب بقليل التفكير عن كثرة التعلُّم، فإنَّ نفس القابل تجد من الفوائد بتفكير ساعة ما لا تجد نفس الجامد بتعلُّم سنة"^(٤).

هنا يتضح الربط بين اكتساب "التعلُّم والتعليم" وبين "التقوى"، وهذا هو الأساس الذي بنى عليه أبو حامد الغزالي منهجيته في

التعليم

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ﴾

(1) George Berkeley ,Philosophical Writings , first edition(New York , collin Book 1965) page47 , 48

(٢) سورة الجاثية، الآية (١٣).

(٣) زكريا بشير إمام: مفهوم التعلُّم في القرآن الكريم، ص ١٦.

(٤) أبو حامد الغزالي، الرسالة اللدنية، ص ١١٣.

فضرب مثلاً للنفس الصافية من الهوى السالمة من المعاصي "بالجواهر الخارج من قعر البحر"، فهي قابلة لاكتساب العلوم والمعارف بيسر وسهولة، أما إذا غلبت عليها الشهوات وغشيتها من القوة البدنية ما غشيتها؛ فإنَّ قبولها للعلوم والمعارف يكون ضعيفاً ويحتاج للجهد والوقت.

وهذا ثابت علمياً، إنه كلما كان الإنسان مشغولاً بالدنيا تقل درجة اكتسابه للعلوم والمعارف، نسبة للتشتت الحاصل للذهن، وكلما كان منتبهاً وقاصداً إلى غاية واحدة كلما زادت نسبة اكتساب المعارف.

فإنَّ الفرد يتجه بإيجابيته وفاعليته واهتمامه إلى إشارات حسية بعينها في مرحلة من مراحل عملية الإحساس والإدراك لتنظيم المادة الداخلية، والتي تمثل الميول والنزعات وأنواع التهيو الجسمية والنفسية مؤثرات مهمة فيها، إلا أنَّ هنالك فروق فردية في اكتساب العلوم، ويرجع السبب فيها للفرق في درجة الانتباه بين الأفراد^(١).

فإذا تعلقت القلوب بالدنيا وشغلها الهوى تقل درجة انتباهها، أما إذا اتجهت إلى الله تعالى وابتغت رضاه تزيد درجة انتباهها، وبالتالي تزيد سرعة اكتسابها للعلوم. وهذا ما رمى إليه أبو حامد الغزالي في إشارته إلى "صفاء النفس" و"غلبة الهوى".

المطلب الثاني

التعليم الرباني

وبعد أن فرغ من شرح طريق التعلُّم الإنساني في تسلسل منطقي، ذكر التعلُّم الرباني، حيث قال: "الطريق الثاني وهو التعليم الرباني وهو على وجهين:

الأول: إلقاء الوحي:

وهو أنَّ النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة، ودرن الحرص والأمل، وينفصل نظرها عن الشهوات، وينقطع نسبها عن الأماني الفانية، وتقبل بوجهها على بارتها، فيحصل لها جميع العلوم، وتتفشف فيها جميع الصور من غير تعلُّم وتفكُّر، ومصدق هذا قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(٢)، فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق، لأنَّ حصوله على الله تعالى بلا وساطة ووسيلة^(٣).

ووسائل التعلُّم الرباني التي ذكرها الغزالي هي:

(١) ينظر: دنيس تشيلد: علم النَّفس والتعلم، ترجمة عبد الحميد محمد السيد و"آخرون"، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٧٥-٧٧.

(٢) سورة النساء، الآية (١١٣).

(٣) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١١٤-١١٥.

١- الوحي:

وخص الله تعالى به الأنبياء والرسل، والتعلم الحاصل من الوحي يسمى عنده علماً نبوياً.

٢- الإلهام والكشف:

"والوجه الثاني من التعلّم الرباني، الإلهام وهو الذي يحصل بغير طريق الاكتساب وحيلة الدليل ولا يدرى العبد كيف يحصل له، ومن أين يحصل ويختص به الأولياء والأصفياء، والتعلم الحاصل منه يسمى علماً لدنياً.

والملمهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجية"^(١).

ولكن ما هي شروط الإلهام والأوجه التي يُحَصَّلُ بها؟

وهذا يكون بثلاثة أوجه:

أ- تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها.

ب- الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة.

ج - التفكُّر.

فإنَّ النفس إذا تعلَّمت وارتاضت بالتعلم، ثم تفكَّرت في معلوماتها بشرط التفكُّر؛ يفتح لها باب الغيب"^(٢).

ولكن رغم هذه الشروط الصعبة والتي لا يستطيع القيام بها إلاّ القليل الذي بلغ درجة عالية من الإخلاص والصبر، رغم ذلك

فإنَّ حصول الإلهام ودوامه نادرٌ جداً "ودوامه في غاية الندور"^(٣).

وكذلك من الوسائل الموصلة عنده للتعليم والتي تتداخل تعريفاتها مع الإلهام: الكشف والرؤيا:

الرؤيا:

يقول أبو حامد الغزالي: "وقد تهب رياح الألفاف، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في

اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل"^(٤).

هذه هي وسائل التعليم عند الغزالي والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

. التحصيل بالتعلُّم: ويتم عن طريق العقل والحس.

. الاشتغال بالتفكير: ويتم عن طريق العقل والقلب.

(١) ينظر: أبو حامد الغزالي، الأحياء، ٢٦/٣، والرسالة اللدنية، ص ١١٦.

(٢) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، ص ١٢٢ "بتصرف".

(٣) أبو حامد الغزالي: الأحياء، ٢١/٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١.

. الوحي: وهو التعلم النبوي.

. الرؤيا الصادقة.

ونسبة للتداخل الشديد والترابط الوثيق بين الإلهام والكشف جعلها أبو حامد الغزالي كالمترادفات، حيث قال: "فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير التعلّم فهي بطريق الكشف والإلهام"^(١). فلم يقل بطريق الكشف أو الإلهام، بل ساوى بينهما.

وقد تأثر فلاسفة الغرب بوسائل التعليم عند الغزالي "فيحصر بيكون"^(٢) وسائل التعليم في: النقل، والاستدلال، والتجربة"، ويرتب دراسته على النحو التالي: "الرياضيات، فالعلوم الطبيعية، فالفلسفة، فالأخلاق، فاللاهوت أو الحكمة الكلية التي تلقى فيها جميع العلوم"^(٣).

فهناك شبه بين ترتيبه وترتيب الغزالي لتلك الوسائل، ونجد أنّ وسائل التعليم تتكامل عند الغزالي لتشمل كافة المقدرات الإنسانية كسببية ووهبية، الشيء الذي ميّز منهجيته في التعليم على غيرها وأعطاهما بعداً شمولياً، كما أنه وضع حدّاً لمفهوم التعليم الذي تاه في طلبه الكثيرون.

يقول رسل: "لفظة التعليم . كما تستعمل عادة . لفظة مسرفة في عدم تحدها، ذلك إنما تعطي عدداً من الأشياء المختلفة، وعدداً من مراحل التفكير بداية من اليقين إلى الاحتمال الطفيف"^(٤).

ولكن التعليم في شرط الغزالي محددة وموصلة إلى اليقين.

فبعد أن تحدث الباحث عن التعلم والتعليم عند أبي حامد الغزالي؛ كان لا بُدّ من ذكر قانونه الذي استعان به على ذلك، وهو المسمى عنده بـ "قانون التأويل".

قانون التأويل:

قبل أن يتحدث أبو حامد الغزالي عن التأويل ذكر أقسام الوجود فقال: "فإنّ الوجود: ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي. فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق"^(٥).

فإذاً أقسام الوجود . عنده . هي :

(١) أبو حامد الغزالي: الأحياء، ٢٥/٣.

(٢) فرانسيس بيكون، وُلِدَ في ظل البلاط الإنجليزي، تلقى تعليمه في كمبرج، اشتغل بالسياسة والفلسفة، وُلِدَ سنة ١٥٦١م، وتوفى سنة ١٦٢٦م. ينظر: المدرسة الفلسفية المختصرة، ص ١٢٠.

(٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار المعارف، د.ت، ط/٣، ص ١٤٠.

(٤) رسل: فلسفتي كيف تطوّرت؟، ترجمة عبد الرشيد صادق، مكتبة الأنجلو المصرية، ط/١، ١٩٦٠م، ص ١٦٢.

(٥) أبو حامد: القصور العوالي، تحقيق فيصل التفرقة، ص ١٥٠.

١- الوجود الذاتي.

٢- الوجود الحسي.

٣- الوجود الخيالي.

٤- الوجود العقلي.

٥- الوجود الشبهي.

ثم بيّن أمثلة هذه الدرجات في التأويلات.

أولاً: الوجود الذاتي:

فيقول عنه: "أما الوجود الذاتي فلا يحتاج إلى مثال، وهو الذي يجري على الظاهر ولا يتأول، وهو الوجود المطلق الحقيقي، كإخبار الرسول ﷺ عن العرش والكرسي والسموات السبع، فإنه يجري على ظاهره ولا يتأول، إذ هذه أجسام موجودة في أنفسها أدركت بالحس والخيال أم لم تدرك" (١).

ثانياً: الوجود الحسي:

ومثاله قول الرسول ﷺ: (يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار) (٢).

فإن من قام عنده البرهان على أنّ الموت عرض وأنّ قلب العرض جسماً مستحيل غير مقدور فينزل على أنّ أهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون أنه الموت ويكون ذلك موجوداً في حسهم لا في الخارج ويكون ذلك سبباً لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك، إذ المذبوح ميؤس منه، ومن يقيم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد أنّ نفس الموت ينقلب كبشاً في ذاته ويذبح" (٣).

ثالثاً: الوجود الخيالي:

فمثاله قوله ﷺ: (كأنّي أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان يلي وتجييه الجبال، والله تعالى يقول له: لبيك يا يونس) (٤).

وعلى الحقيقة فكل ما يتمثل في محل الخيال فيتصور أنّ يتمثل في محل الإبصار فيكون ذلك مشاهدة، وقلما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل" (٥).

(١) أبو حامد: القصور العوالي، تحقيق فيصل التفرقة، ص ١٥٣.

(٢) أخرجه أحمد، ٣٧٧/٢، والحاكم، كتاب الإيمان، باب يذبح الموت على الصراط، ١/١٨٣، من طريق محمد بن عمرو وصحّحه وخالفه الذهبي، رجاله ثقات إلاّ محمد بن عمرو "صدوق له أوهام" وعليه مدار الحديث.

(٣) أبو حامد الغزالي: القصور العوالي، تحقيق فيصل التفرقة، ص ١٥٣.

(٤) الإتحافات السنينة، ص ٢٤٣.

(٥) أبو حامد الغزالي: القصور العوالي، تحقيق فيصل التفرقة، ص ١٥٤.

رابعاً: الوجود العقلي:

فمثاله قوله ﷺ: (آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة أمثال هذه الدنيا)^(١).

وقد يقطع المتأول هذا التعجب فيقول المراد به تفاوت معنى عقلي لا حسي ولا خيالي، كما يقال. مثلاً: هذه الجوهرة أضعاف الفرس، أي في روح المالية، ومعناه المدرك عقلاً دون مساحتها المدركة بالحس والتخيّل^(٢).

خامساً: الوجود الشبهي:

فمثاله الغضب، والشوق، والفرح، والصبر، وغير ذلك مما ورد في حق الله تعالى، فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً نزل على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كإرادة العقاب والإرادة لا تناسب الغضب في حقيقة ذاته ولكن في صفة من الصفات تقارنهما^(٣).

هذا هو قانون التأويل عند الغزالي، وضعه بمنهجية دقيقة فذكر أولاً أقسام الوجود لأنه لا تأويل من غير وجود، ثم بيّن ما يمكن أن يؤول من تلك الأقسام وما لا يؤول، فالذي لا يؤول هو الوجود الذاتي كوجود الكرسي والعرش والسموات السبع، أما الأقسام الأربعة: الوجود الحسي، والخيالي، والعقلي، والشبهي فيمكن تأويلها.

والذي زاد من إحكام منهجية الغزالي في قانون التأويل هو ضربه للأمثلة لكل قسم من أقسام الوجود، وهي منهجية غاية في الإيضاح.

فبعد أن أرسى أبو حامد قانون التأويل وأحكم قاعدته أراد أن يبيّن مقاماته فقسّمها إلى اثنين:

المقام الأول: مقام عوام الخلق:

"مقام عوام الخلق والحق فيه الإتياع والكف عن تغبّر الظواهر رأساً، والحذر عن ابتداء التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة، وحسم باب السؤال رأساً، والزجر عن الخوض في الكلام واتباع ما تشابه من القرآن والسنة. كما روي عن مالك. رحمه الله تعالى. أنه سئل عن الاستواء، فقال: "الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة"^(٤).

(١) ذكره صاحب "إنحاف السادة المتقين"، ٥٥٧/٨.

(٢) أبو حامد الغزالي: القصور العوالي، تحقيق فيصل النفرقة، ص ١٥٥.

(٣) أبو حامد: القصور العوالي، تحقيق فيصل النفرقة، ص ١٥٦.

(٤) أبو حامد الغزالي: القصور العوالي، تحقيق فيصل النفرقة، ص ١٦٠.

المقام الثاني: مقام النظر:

"مقام النظر الذين اضطرت عقائدهم المأثورة المروية، فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغي أن يكفر بعضهم بعضاً، بأن يراه غالباً فيما يعتقد به، فإن ذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك، وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به"^(١).

هذان المقامان جسّد فيهما أبو حامد وبطريقة فلسفية المواقف المانعة من التأويل، والداعية إليه، والشروط التي تحكم ذلك. فقسّم الناس: عوام ونظار، وبين حال كل منهما عند النظر لظواهر الشرع.

حتى إن ابن رشد رغم الجدل القائم بينهما سار على دربه وقلده في هذا المقام، فقال: إن العوام يجب أن يوقف لهم عند ظاهر الشرع ولا يسألوا عن جواب ما هو، لأن عقولهم لا تطيق ذلك"^(٢).

أما في مقام النظر فقد حدّد البحث بالضرورة، حتى لا يغفلوا في الجدل ويخرج البحث عن مقصده ويتولد الشقاق. وفي هذا المقام فقد أرسى أبو حامد أدب النقد، "ولا ينبغي أن يكفر بعضهم بعضاً، بأن يراه غالباً فيما يعتقد به، فإن ذلك ليس أمراً هيناً هيناً"، ومنهجية "الحوار وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه".

إنها المنهجية التعليمية التي ترتب الأفكار، وتجلي الرؤى، وتوضح المعالم، وترتبط بقانونية صارمة. فليس هناك مجال للسفسطة والأحكام النشاذ، ولكنها منهجية في البحث، أساسها التعليمية مزينة بأدب النقد وصدق الحوار، تلكم التي صاغها أبو حامد في التعلم والتعليم، حيث بدأ بالتعلم لأنه مفتاح التعليم، فعرفه وبين أقسامه وحقوقه ومراتبه بتسلسل منهجي، ثم ربط حديثه عن التعلم بالتعليم وحدّد شروطها ووسائلها، وجعل أساسها التوحيد الخالص والتقوى. كل ذلك وفق منهجية علمية راسخة ظلت منهلاً أصيلاً حتى يومنا هذا.

فيجب علينا الاهتمام بها والاستفادة منها وترقيتها، حتى نسهم بإيجابية في تطوير المنهجية المعاصرة.

(١) أبو حامد: القصور العوالي، تحقيق فيصل التفرقة، ص ١٦١.

(٢) ينظر: ابن رشد: مناهج الأدلة، تحقيق محمود قاسم، ص ٨٠.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

١. ابن رشد: مناهج الأدلة تحقيق محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢. أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق مصطفى أبو العلا ومحمد محمد جابر، مطبعة سيدنا الحسين، مصر، د.ت.
٣. أبو حامد الغزالي: المستصفى، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.
٤. أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدنية، شركة الطباعة الفنية، د.ت.
٥. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
٦. أبو حامد الغزالي: فيصل التفرقة، شركة الطباعة الفنية، د.ت.
٧. زكريا بشير إمام: مفهوم التعلم، سلسلة دراسات في القرآن الكريم، ١٩٩٥م.
٨. محمود قاسم: نظرية التعليم عند ابن رشد، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.
٩. مصطفى النشار: فلاسفة أيقظوا العالم، دار الثقافة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨م.
١٠. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦م.
١١. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار المعارف، د.ت.
١٢. عبد الله حسن زروق: نظرية التعليم عند الغزالي، المسلم المعاصر، بيروت لبنان، العدد ٤٨، ١٩٨٧م.
١٣. عثمان عيسى شاهين: نظرية التعليم عند الغزالي "أبو حامد في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده"، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦١م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

14. Georg – Berkely , Philosophical Writing , First Edition (New York collien Book1955)